



JIS

Journal Of Islamic Studies
Kabul University
e-ISSN:3078-6355

<https://doi.org/10.62810/jis.v1i4.165>

الباحث:

الدكتور مصطفى قدوري، أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي،
أكاديمية سوس ماسة- المغرب.

البريد الإلكتروني: staff.kaddouri@gmail.com

تاريخ المادة:

تاريخ الإرسال: (٢٦ ذو القعدة ١٤٤٦)

تاريخ الإصدار: (١٠ ذو الحجة ١٤٤٦)

تاريخ القبول: (٢٦ ذو الحجة ١٤٤٦)

تاريخ النشر: (٢٩ ذو الحجة ١٤٤٦)



الاستعارة في الخطاب القرآني بين النحو والبلاغة، دراسة تداولية

الملخص: تروم هذه الدراسة بيان القواسم المشتركة بين علم النحو والبلاغة والتداوليات الحديثة، وكيف يمكن استثمار هذه العلوم للإجراء والتطبيق على الخطاب القرآني، وتكمن أهميتها في تقريب المتلقي من مفهوم الاستعارة باعتبارها مبحثاً من مباحث البلاغة العربية، وإبراز مواضع الاتفاق والتشابه بين علمي البلاغة والنحو، ثم بين البلاغة وبين التداوليات الحديثة، على اعتبار أنها علومٌ تبحث في المعنى ومعنى المعنى حسب سياق الكلام، وقصد المتكلم؛ فالْبلاغة تقتضي علم النحو، وتعمل بأصوله وقوانينه، ووظيفة الاستعارة توضيح المعنى الغرض، أو المعنى المستلزم من السياق، وهذا المعنى الجديد في الكلام يسمى عند التداوليين بالمعنى الاستلزامي؛ أي أن المخاطب يتجاوز المعنى الحرفي للكلام إلى معنى أو معانٍ أخرى بناءً على موضع استعماله. وقد أدرك البحث أهمية الربط بين الألفاظ والمعاني حيث لا قيمة للألفاظ في غياب المعاني النحوية، وهما يجريان معاً في وضع معين، وبناءً على ذلك قامت نظرية النظم عند الجرجاني، ذلك النظم القائم على أساس التعاضد بين النحو والبلاغة، والذي فسرت به مظاهر الإعجاز القرآني من خلال توظيف المنهج الوصفي التحليلي لوصف وتحليل بعض الآيات القرآنية، وبيان مواضع تجسيد وتحقيق العلاقات التركيبية بين المعنى والمبنى.

الكلمات المفتاحية: الاستعارة، البلاغة، التداولية، الخطاب القرآني، النحو.

Metaphor in Qur'anic Discourse Between Grammar and Rhetoric: A Pragmatic Study

ABSTRACT: This study aims to elucidate the commonalities between grammar, rhetoric, and modern pragmatics, and to explore how these disciplines can be effectively utilized and applied to Qur'anic discourse. Its significance lies in bringing the audience closer to the concept of metaphor as a central topic in Arabic rhetoric, while highlighting the areas of convergence and similarity between metaphor and grammar, as well as between metaphor and modern pragmatics. These fields all share a concern with meaning and the meaning beyond the literal, according to the context of speech and the speaker's intent. Rhetoric, by its nature, presupposes grammar and operates within its principles and rules. The function of metaphor is to clarify the intended meaning or the implied meaning derived from context. This new layer of meaning is referred to in pragmatics as implicature—that is, the addressee goes beyond the literal interpretation of the utterance to grasp an additional or alternative meaning based on the usage context. The study recognizes the importance of linking words with meanings, as words hold no value in the absence of grammatical meaning. The two work in tandem within specific linguistic contexts. On this basis, Al-Jurjani developed his theory of nazm (composition), which is founded on the interplay between grammar and rhetoric. This theory was used to interpret aspects of Qur'anic inimitability through the descriptive-analytical method, aiming to describe and analyze selected Qur'anic verses and demonstrate the syntactic-semantic relationships that manifest the integration of structure and meaning.

Keywords: Grammar, Metaphor, Pragmatics, Qur'anic Discourse, Rhetoric.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين. وبعد: فإن مهمة البلاغة تكمن بحسب بحث المعاني الأول والثواني عند البلاغيين القدماء، في دراسة المعاني الثواني للتراكيب المنجزة في المقامات المخصوصة، والخاضعة لمقاصد المتكلمين وأغراضهم، وهي مهمة ذات أبعاد تداولية واضحة، تجعلها على حد تعبير بعض الدارسين علماً لدراسة الأقوال المنجزة في المقامات المعينة، مستندة في ذلك إلى علم النحو، باعتباره علماً يبحث في التراكيب المؤدية لأصل المعنى الأساسي الذي تنطلق منه الدراسة البلاغية.

وبما أن الاستعارة هي ذلك الاستعمال المجازي للفظ خاص بمعنى في معنى آخر بينهما تشابه فإن حدّ التأويل في المعاني يرتبط بذلك المعنى المجازي الذي جرت فيه العبارات البيانية على الوجه الحسن أو القبح، ومن هنا تكمن العلاقة بين الاستعارة والنحو، يجسدهما علم غربي حديث هو علم التداولية.

ولا مراء أن نشأة العلوم اللغوية العربية تعود بالأساس إلى تدبر ودراسة القرآن الكريم قصد فهمه واستخلاص معانيه، ومنها علم النحو الذي تكمن غايته في تصحيح ما اعتري بعض الألسن أو القراءات من اللحن والتحريف عن سليقة العربية، استناداً إلى التراكيب الإسنادية بين الكلمات حسب موقعها من الجملة، وما دامت البلاغة تتطلع إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإن هذا ما جعلها ترتبط بفهم الكلام حسب سياقه؛ فتتغذى على علم النحو، وتمتد في جذوره، يقول الجرجاني: "ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها".^١

ومن هذا المنطلق كان موضوع البحث حول: "الاستعارة في الخطاب القرآني بين النحو والبلاغة، دراسة تداولية"، وذلك بتوظيف المنهج الوصفي التحليلي في دراسة بعض النماذج من الآيات القرآنية المنتقاة من الذكر الحكيم، واستخلاص ما يربط بينها من علاقات تركيبية وبلاغية قائمة على الاستعارة، لأن العبارات البيانية فضلاً عن إنجازها الفعل الغرض المقصود بطريق غير مباشر، فإنها تقوم بوظيفة أساسية أخرى هي توضيح الفعل الغرض، فالتشبيه مثلاً يقوم بتصوير المعنى المقصود تصويراً حسياً، وكذلك المجاز المرسل يقوم بتوضيح المعنى الغرض وإبانتة عن طريق جعل الكلمة لا تدل على مسمائها مباشرة، بل على مسمى آخر تدل عليه كلمة لها بما علاقة، ووظيفة الاستعارة يستقر موضوعها الأساس على توضيح المعنى الغرض، أو المعنى المستلزم من الكلام.

١. إشكالية البحث:

تتمثل إشكالية البحث في العلاقة المتشابكة بين البلاغة، والنحو، والتداوليات، وخاصة في سياق الاستعارة داخل الخطاب القرآني. فبينما تبحث البلاغة في "المعاني الثواني" التي تنشأ عن التراكيب في سياقات خاصة، فإن هذه المعاني لا يمكن

^١ - عبد القاهر الجرجاني، ١٩٩٢م، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمد محمود شاكر، الطبعة الثالثة، القاهرة، مطبعة المدني، ص:

فصلها عن البنية النحوية التي تؤسس للمعنى الأصلي، ولا عن المقصد التداولي للكلام. والسؤال الإشكالي المركزي هنا هو:

كيف تتداخل الاستعارة كآلية بلاغية مع قواعد النحو ومبادئ التداولية لفهم الخطاب القرآني؟

٢. أسئلة البحث:

أجاب البحث على حزمة من الأسئلة التي تتصل بموضوعه، نذكر منها ما يلي:

- ما طبيعة العلاقة بين الاستعارة وعلم النحو في الخطاب القرآني؟
- كيف تساهم البلاغة في تفسير المقاصد التداولية للاستعارة ضمن السياق القرآني؟
- ما الدور الذي تلعبه التراكيب النحوية في إنتاج المعاني المجازية؟
- كيف يمكن توظيف المنهج التداولي، لفهم الاستعارة في النص القرآني؟

٣. أهداف البحث:

لا بد أن لكل دراسة أهدافاً خاصة بها تروم تحقيقها، وتضطلع من خلال البحث والتحليل ومناقشة الأفكار إيصال المعلومات إلى القارئ بشكل يسير، لا يخل بالهدف العام للبحث، وفي الوقت نفسه يستجيب لحاجات القارئ وتطلعاته. وهذه الدراسة تتمحور أهدافها الرئيسة فيما يلي:

- بيان الروابط النظرية والتطبيقية بين النحو والبلاغة في تحليل الاستعارة.
- تحليل الآليات التداولية التي تحكم استعمال الاستعارة في القرآن الكريم.
- إبراز كيفية توظيف الاستعارة لتوضيح المعاني الغرضية أو الاستلزامية.
- توضيح مساهمة علم النحو في الكشف عن البنية العميقة للخطاب البلاغي القرآني.

٤. أهمية البحث:

تنبع أهمية البحث من محاولته تقديم مقارنة تكاملية بين علوم اللغة الثلاثة: النحو، البلاغة، والتداولية، من خلال دراسة الاستعارة في النص القرآني. كما يسعى إلى تعميق الفهم التداولي للنصوص البلاغية، ويبين كيف يمكن للاستعارة أن تؤدي دوراً مركزياً في توصيل المعاني المقصودة بطريقة غير مباشرة ولكن فعالة، وهو بذلك يساهم في تطوير أدوات تحليل النص القرآني من منظور لغوي حديث.

٥. الدراسات السابقة:

بعد البحث والتحري عن الدراسات السابقة، عثرت على مجموعة من المؤلفات التي ترتبط بالموضوع، إلا أنها تقتصر على جانب أو جانبيين فقط مما تناولته في البحث، فإما أنها ركزت على الاستعارة والتداولية في القرآن الكريم، أو الاستعارة بين

النحو والبلاغة دراسة لسانية، ولكني لم أعثر على دراسة شاملة مطابقة للموضوع، وأعتقد أن أهمية البحث وجدتيه تكمن في هذا الصدد، ومن بين هذه الدراسات ما يلي:

- أ. د. عيد بليغ، الرؤية التداولية للاستعارة، مجلة علامات: مكناس، المغرب، العدد ٢٣، سنة ٢٠٠٥.
- ب. عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ للنشر (دت)، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- ج. بوطهرة نعمان، دلالات الاستعارة القرآنية بين النحو والبلاغة، مقارنة لسانية في التركيب اللغوي، المجلة الجزائرية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٦، العدد ٢. دجنبر ٢٠٢٢.
- د. سليم قزعو، الأصول التداولية في النحو العربي، مجلة الآداب واللغات، المجلد ٨، العدد ٢، يوليو ٢٠٢٢.
- هـ. راضية عزيزي، كمال بخوش، الاستعارة بين البلاغة العربية واللسانيات المعرفية، مجلة المدونة، المجلد ٨، العدد ٢، يونيو ٢٠٢١.

إضافة إلى بعض الكتاب والمقالات والبحوث التي تلامس الموضوع في بعض جوانبه.

٦. منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، من خلال:

وصف الظواهر اللغوية البلاغية والنحوية في النصوص القرآنية.

تحليل التراكيب ذات الطابع الاستعاري.

الكشف عن الأبعاد التداولية الكامنة خلف هذه التراكيب.

٧. خطة البحث:

جاء البحث في فصلين رئيسين،

الفصل الأول: مدخل نظري للبحث، عرّض لأهم المفاهيم من خلال المباحث التالية:

- العلاقة بين الاستعارة والنحو.

- العلاقة بين الاستعارة والتداولية.

- العلاقة بين النحو والتداولية.

الفصل الثاني: دراسة تطبيقية تحليلية لنماذج من الآيات القرآنية.

الخاتمة: عرض لأهم النتائج والتوصيات.

الفصل الأول: تحديد المفاهيم الأساسية في البحث:

١ - العلاقة بين الاستعارة والنحو:

يقصد بالاستعارة عند البلاغيين نقل كلمة من معناها الأصلي إلى معنى ثانٍ لعلاقة مشابهة بين معنيين نقلاً قائماً على الدعوى بينية، كما رأوا أن المدلول الاصطلاحي للاستعارة لا يختلف عن مدلولها اللغوي، ذلك أن الاستعارة لغة، هي نقل الشيء من مالكة إلى شخص آخر غير مالك، وقد أشار السكاكي إلى هذا التطابق بين المعنى الاصطلاحي للاستعارة ومعناها اللغوي بقوله: "الاستعارة هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر"^١. وهذا التلازم المنطقي بين الاستعارة وبين التشبيه هو الذي أدى إلى اختلاط التشبيه بالاستعارة عند بعض اللغويين المتقدمين عن السكاكي والمتأخرين عنه، وكان هذا عاملاً أيضاً لاختلاف البلاغيين في تصنيف التشبيه البليغ الذي حذف فيه أداة التشبيه ووجه الشبه نحو: زيد أسد، إذ صنّفه بعضهم ضمن مقولة الاستعارة ومن هؤلاء الرماني^٢، وأبو هلال العسكري في الصناعتين^٣، وصنّفه السكاكي متابعاً منه لعبد القاهر الجرجاني^٤ في إطار التشبيه.

ولا ريب أن نشأة النحو كان الغرض منها تقويم اللسان العربي، وحفظ القرآن الكريم من التحريف واللحن، الذي انتشر في بيئة العرب نتيجة اختلاطهم بالعجم، ومنه أفادت باقي العلوم من بينها البلاغة العربية، التي تغذت على قواعده وأصوله، وهذا التداخل بين النحو والبلاغة أفضى إلى تأسيس نظرية النظم مع الجرجاني: "واعلم أن ليس 'النظم' إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه 'علم النحو'، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي تُبحث فلا تزيع عنها، وتحفظ الرسوم التي رُسمت لك، فلا تُخلّ بشيء منها"^٥.

ومن هنا نستشف أهمية الربط بين ثنائيتين أساسيتين هما: الألفاظ والمعاني؛ حيث لا قيمة للألفاظ في غياب المعاني النحوية، وهما يجريان معاً في وضع معين؛ فقول الجرجاني "أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو"، يوحى إلى ثلاثة علوم يُفقد بعضها من بعض: علم البلاغة، وعلم النحو، وعلم التداولية؛ وقد جرى التمثيل لعلم معاني النحو بأبواب التقديم والتأخير، والفصل والوصل، والحذف، وغيرها، حيث إن استقامة اللفظ في الفصاحة والبلاغة شرط أساس ثوبه قواعد النحو؛ وهما معا يخضعان لسياق معين حسب ما يتطلبه الكلام، وسيأتي بيان ذلك في الجانب التطبيقي.

١ - أبو يعقوب السكاكي، ٩٨٧م، مفتاح العلوم، تعليق نعيم زرزور، (د.ط)، بيروت، دار الكتب العلمية، ص: ٣٦٩.

٢ - أبو الحسن الرماني المعتزلي، ٩٨٧م، "النكت في إعجاز القرآن"، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، (د.ط)، مصر، دار المعارف، ص: ٧٥.

٣ - أبو هلال العسكري، الصناعتين، ١٤١٩هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط)، بيروت، المكتبة العنصرية، ص: ٢٥١.

٤ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١: ٤٤٩ - ٤٥١.

٥ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١: ٨١.

إن هذا النظم القائم على التعاضد بين النحو والبلاغة، هو الأساس الذي فُيِّرت به مظاهر الإعجاز القرآني؛ ولا تعدو صورة الاستعارة أن تكون إلا جزءاً منه، يقول صاحب النظرية في هذا الموضوع: "وذلك لأن هذه المعاني التي هي "الاستعارة"، و"الكناية" و"التمثيل"، وسائر ضروب "المجاز" من بَعْدِهَا من مُقْتَضِيَاتِ "النظم"، وعنه يحدث وبه يكون؛ لأنه لا يُتَصَوَّر أن يَدْخُلَ شيءٌ منها في الكَلِم وهي أفرادٌ لم يُتَوَخَّ فيما بينها حَكْمٌ من أحكام النحو؛ فلا يُتَصَوَّر أن يكون ههنا "فعل" أو "اسم" قد دَخَلَتْهُ الاستعارة، من دون أن يكون قد أُلِفَ مع غيره".^١

والجرجاني بهذا الكلام يروم بيان أن الاستعارة من المعاني؛ أي أنها قائمة على معاني النحو، ودقة الكلمات في الترتيب، مثلها مثل باقي ضروب علم البيان، أو المجاز كما أراد تسميتها، فالاستعارة لا تدخل على كَلِم (اسما كان أو فعلا)، دون أن يرتبط بغيره، وهكذا في النحو لا يمكننا معرفة الفاعل إلا بوجود الفعل، ولا الخبر إلا بوجود المبتدأ، ولا الصفة إلا بوجود الموصوف، وهي تظهر في واحد من هذه المتألفات.

ومن ثَمَّ فإن للقواعد التركيبية دوراً كبيراً في بناء سائر ضروب البلاغة، ومنها الاستعارة، وإن جرت في لفظ واحد، إلا أن هذا اللفظ باعتبار مدلوله ومعناه له علاقة مشابِهة بطرف آخر، بحيث لا يتخيل وجود الاستعارة دون المستعار منه والمستعار له وإن كان أحدهما محذوفاً في الكلام.

٢ - في العلاقة بين الاستعارة والتداولية:

تكمن وظيفة العبارات البيانية، في المعنى المستلزم من السياق عند السكاكي في أن الصور البيانية باختلاف أنواعها من تشبيه ومجاز وكناية، تقوم على الانتقال من معنى الجملة إلى المعنى الذي قصده المتكلم، وهو ما "لا يتم في مستوى بنية الفعل الإنجازي بل في مستوى البنية الدلالية إلى المحتوى القضوي، ومن ثم تكون وظيفة العبارات البيانية المختلفة إنجاز الأفعال غير المباشرة"^٢ وتوضيحها أو بالأحرى وظيفة العبارات البيانية إنجاز دلالات استلزامية، وهذا الطرح التداولي للصور البيانية سواء عند السكاكي أو غيره من بلاغيين القدماء، لا يختلف في مضمونه العام عما نجده في اللسانيات التداولية مع "أوستين" و"سيرل" و"بول غرايس".

إن الانتقال من معنى معين إلى معنى آخر في الاستعارة يكون عبر علاقة مشابِهة بين طرفيها (المستعار له والمستعار منه)، يشترط مدلولها وجود قرينة أو مؤشر يدل على امتناع إرادة المعنى الحقيقي، يؤدي إلى المعنى الجديد في الكلام، وهو ما يدعى في التداوليات بالمعنى الاستلزامي؛ أي أن المخاطب يتجاوز المعنى الحرفي للكلام إلى معنى أو معانٍ أخرى بناء على موضع استعماله. ولننظر إلى براعة الجرجاني في تحديد المعنيين: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض

^١ - الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١: ٣٩٣.

^٢ - علي محمود حجي الصراف، ٢٠٠٠، في البراغمية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، (د.ط)، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، ص: ١٤٤.

بدلالة اللفظ وحده، وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض.^١

ومن هذا المنطلق تأتي الرؤية التداولية للاستعارة، لتقدم إضافات علمية تثري مجال البحث البلاغي وفق سياق ثقافي تواصلية غفلت عنه معظم الدراسات السابقة، "ذلك لأن الرؤية التداولية تتعامل مع الاستعارة في سياقها الواقعي، وهذا ما يميزها عن النظريات السابقة، وإن كانت الرؤية التداولية للاستعارة تتفق في بعض جوانبها مع نظريتي: "السياقية، والحدسية" وإن اختلفت عنهما في كثير من الوجوه.^٢

واليك توضيح لما ذكر، لنفترض أن زيداً حلّ ضيقاً على ثلة من زملائه، ولما حضر الطعام تذوقه، ثم قال: "أكل الطعام مراراً كَفَنًا"، فالمثال يضعنا أمام أربع فوائد تربط بين الاستعارة والتداولية، أولها: الإخبار: فزيد يخبر زملاءه بأنه يتناول طعاماً سيئاً، وثانيها: تجاوز مقتضى الظاهر إلى فعل كلامي غير مباشر أو المعنى المستلزم: وقد استخدمه زيد ليطلب من زملائه زيادة الملح في الطعام، وثالثهما: التهكم؛ فزيد يتهم ويستعزئ منهم لقلة درايتهم بالطبخ، رغم لذة الطعام، ورابعها وهو الأهم؛ أي المنطوق الاستعاري، ويقصد زيد من وراء ذلك أن الطعام لم يعد يستساغ له بسبب كثرة الشجار بينهم. وانتقالاً إلى الفيلسوف الأمريكي غرايس الذي تحدث عن قواعد التخاطب، وقسمها إلى عدة فروع، يمكن بيان علاقتها بالاستعارة كما سيأتي:

- "قاعدة الكم: أي أن يكون الكلام موجزاً وعلى قدر حاجة المخاطب وإفهامه.
 - قاعدة النوع: أي أن يكون المتكلم صادقاً ويمتلك البيّنة على ما يقول.
 - قاعدة المناسبة: أي أن يلائم المقال مقام المخاطب.
 - قاعدة الكيف (الطريقة): أي الاحتراز من الابهام والغموض والايجاز وترتيب الكلام".^٣
- الاستعارة عند البلاغيين ارتبطت بالإيجاز والاقتصاد في الكلام، وهو المعنى نفسه الذي قدّمته قاعدة الكم، فضلاً عن ذلك فإن أهمية الاستعارة تتمثل في شرح المعنى وتوضيحه وتأكيده، والمبالغة فيه، وهو الأمر الذي يضمنه مبدأ الكيف في قواعد التخاطب، وقد تقدّم الكلام على الاستعارة في احتمالاتها لعدة قضايا ومعان مختلفة ومتشعبة يفرضها نوع السياق التواصلية الذي جرت فيه نحا نحوه مبدأ المناسبة التداولي، وبما أن الهدف الأسمى الذي تتطلع إليه البلاغة عمومًا هو إضفاء البعد الجمالي والفني على الكلام، قصد جذب المتلقي والتأثير فيه، كان هذا عاملاً من عوامل نجاح الحدث التواصلية، الذي يستأثر باهتمامه مبدأ النوع وهو يملك الحجة والبيّنة.

١ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١: ٢٦٢.

٢ - د. عيد بلع، (٢٠٠٥)، الرؤية التداولية للاستعارة، مجلة علامات، العدد ٢٣، مكناس، المغرب، ص: ٩٩.

٣ - طه عبد الرحمان، ١٩٩٨م، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط١، بيروت، المركز الثقافي العربي، ص: ٣٠٥؛ وينظر: إمبرتو إيكو (٢٠٠٥)، السيميائيات وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص: ٢٣٨.

رام هذا المبحث بيان العلاقة بين الاستعارة والتداولية، أي بين علمين تفارقهما السنون والقرون؛ ويتجاذبهما الباحثون على مختلف مشاربهم (بلاغيين وفلاسفة ولسانيين)، وتمايزهما أجناسهم (عربا وغربيين) ... إلا أن هذا لم يمنع من حدوث بوادر للاتصال والتقاطع بينهما؛ فالاستعارة من البلاغة؛ والبلاغة تشترط مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهكذا التداولية وهي تتطلع لإنجاح الحدث التواصل، ونجاحه رهين بتوفر جملة عوامل من بينهما السياق.

٣- في العلاقة بين النحو والتداولية:

التداولية علم يدرس الوظيفة التواصلية بين المتكلمين، أي العلاقات الاجتماعية بين الناس في سياق تخاطبي معين، هدفها إنجاح الحدث التواصل، وتحقيق أغراض معينة. ولها بهذا التعريف قواسم مشتركة مع النحو عند ابن جني في "الخصائص"، أثناء تعريف اللغة بقوله: "أما حدّها فإنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".^١

فضلا عن الغرض، فإن النحو والتداولية يهتمان بالسياق، ولهذا الأخير دور كبير في الكشف عن المعاني؛ فالتداولية تروم تحليل النصوص مركزة على الجانب الوظيفي للغة حيث يحدث التفاعل بين مكونات العملية التواصلية (المتكلم والمتلقي والرسالة)، وذلك بناء على عناصر سياقية. وفي النحو راعى سبويه المقام والسياق في تبويبه النحوي، من قبيل ما علّله في قول العرب: "أهلك والليل"، بقوله: "ومثل ذلك: أهلك والليل، كأنه قال: بادر أهلك قبل الليل، وإنما المعنى أن يحذره أن يدركه الليل... وإنما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثنوا لكثرتها في كلامهم، واستغناء بما يرون من الحال، ولما جرى من الذكر، وصار المفعول الأول بدلا من اللفظ بالفعل".^٢ فالمتأمل في المعنى الحرفي للكلام لا يدرك أنه يضمّر تحذيرا من حلول الليل عليه وهو بعيد عن أهله، مما يعني أن للسياق أهمية كبيرة في فهم مقصد المتكلم، يقابل هذا المتكلم في التداولية مفهوم العامل في النحو، وهو رأي من يقول: إن المتكلم هو الذي يحدث الإعراب؛ لأن الإعراب مفسر للمعاني التي يقصدها المتكلم "فالمتكلم هو فاعل الكلام"^٣، وهو فرع المعنى والعلامات الإعرابية وضعت لتبين المعنى، فيظهر معنى الفاعل بالرفع، والمفعول بالنصب، "ومحصول الحديث فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه لا لشيء غيره"^٤ وإذا لم يتضح المعنى فإن العرب تأتي بما يؤكد الكلام من توكيد لفظي ومعنوي، وإزالة الإبهام تأتي بالحال والتميز والصفة والفضلات والتكرار والجملة الاعتراضية والتفسيرية... وللناية والتشويق تُقدّم ما حقه التأخير، وتؤخر ما حقه التقديم، كقوله تعالى: "وأما السائل فلا تنهر"^٥، و"إياك نعبد"^٦، وهذا ليس مطلقا، لأنهم اهتموا بأمن اللبس، وذلك في تأكيدهم الابتداء بالمعرفة للدلالة على معنى، ولا يجوزون الابتداء بالنكرة إلا بشروط يحضر فيها المعنى.

^١ - ابن جني، (د.ت)، الخصائص، الطبعة الرابعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١: ٣٤.

^٢ - سيبويه، ١٩٨٨م، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١: ٢٧٥.

^٣ - العسكري، (د.ت)، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، (د.ط)، مصر، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، ص: ٤٧٨.

^٤ - ابن جني، الخصائص، ١: ١١١.

^٥ - سورة الضحى الآية: ٩.

^٦ - سورة الفاتحة الآية: ٤.

فضلا عن ذلك؛ فإن كلام العرب يُبنى على القصد والفائدة، "ولهذا السبب فإن تأويل الاستعارة مرتبط بقرار صادر عن قصدية المتكلم"^١ فالجئون والنائم والطفل الصغير والساقي، لا يؤخذ بكلامهم لعدم توفره على معنى، يقول ابن مالك في ألفيته:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم ... واسم وفعل ثم حرف الكلم^٢

فقال: كلامنا، وهو يعود بالضمير على العرب، ويشترط في ذلك الفائدة، والنحو كله يبنى على الإفادة، أي إفادة المخاطب بمضمون الكلام، فحتى الشواهد التي يقدمونها تجمع دائما بين التركيب والدلالة، ولا تخلو من أحدهما، فقول القائل مثلا: أكل زيد الحائط؛ فالجملة سليمة نحويا، لكنها بدون قصد وفائدة، وهو كلام يحتمل الصواب بمعزل عن السياق الذي قيل فيه، لأننا لو افترضنا أن المتكلم أديب عاقل في سياق آخر لصحّ الحكم على كلامه بأنه ذو قصد وفائدة. وإن قلنا "قطع اللحم السكين"، فالتركيب أيضا صحيح اعتمد على الرتبة في اللغة العربية (فعل + فاعل + مفعول به)، وقد سلّم معناه من التحريف رغم تغيير علاماته الإعرابية: "قطع اللحم السكين"، وقد ورد معنى الكلام تأمّا، وإن كان النقص في اللفظ؛ إذ في الكلام ما يشير إلى فهم المعنى في اللغة التواصلية، يفهم المخاطب المعنى المراد بمؤشر الاصطلاح والعرف في القطع، فإن القاطع هو السكين والمقطوع هو اللحم في العرف التواصلية، فلا يبقى الغموض مع هذا المؤشر أو القرينة، فرغم تقدّم المفعول على الفاعل إلا أن الجملة احتفظت بسلامتها من حيث المبنى والمعنى. وهو ما يطابق مفهوم الاستلزام الحواري عند بول غرايس الذي بنى فعله على شقين رئيسين: الدلالة والقصد، من خلال الحديث عن الدلالة الطبيعية وغير الطبيعية.

توصلنا من خلال هذه المقارنة بين النحو والتداولية؛ أن الدراسات التحوية تدور كلها حول إظهار المعنى وأمن اللبس، وكان شغل النحاة الشاغل القصد والفائدة، والأمر نفسه الذي سارت على دربه التداولية الحديثة، لاهتمامها بالمعنى، وأطراف العملية التواصلية، وغرض التواصل، وسياقه، والكلام المستلزم من السياق.

الفصل الثاني: نماذج تطبيقية منتقاة من القرآن الكريم:

أ- في الاستعارة التصريحية والمكنية:

- قال تعالى: "أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"^٣ وقال عز وجل: "وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا"

في الآية الكريمة استعارة تصريحية شبه فيها الدين الحق بالطريق المستقيم، والجامع بينهما الهداية، فحذف اللفظ الدال على المشبه أو المستعار له (دين الحق)، وصُرح بلفظ المشبه به أو المستعار منه (الطريق المستقيم)، وقد تجسدت

١ - أمبيرتو إيكو (٢٠٠٠)، التأويل بين السيميائية والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، ط١، الرباط، المغرب، المركز الثقافي العربي، ص: ١٥٩.

٢ - ابن مالك، (د.ت)، ألفية ابن مالك، باب الكلام وما يتألف منه، (د.ط)، دار التعاون، ص: ٩.

٣ - سورة الفاتحة، الآية: ٦.

٤ - سورة مريم الآية: ٤.

الآية في تركيب فعلي مكون من فعل وفاعل ومفعول به أول (اهدنا)، ومفعول به ثان (الصراط)، وصفة (المستقيم)، وقد تحققت الاستعارة في هذا التركيب الإسنادي بين مفردات الجملة، ولن نتحقق في الفصل بينها، حيث إن كل كلمة ستفيد معنى مستقلاً بمعزل عن السياق الذي وردت فيه، وكلما كان التركيب محكماً، كلما أدت الاستعارة وظيفتها بشكل مثالي، فالمفعول الثاني (الصراط) يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفعل (اهد)، وقد كانت الصفة داعماً رئيساً لهذا الارتباط، "لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو؛ فلا يتصور أن يكون ههنا "فعل" أو "اسم" قد دخلته الاستعارة، من دون أن يكون قد ألف مع غيره." وإذا استحضرننا سياق الآية التداولي نكشف على أن الحوار جارٍ بين العبد وخالقه، في إطار الصلاة خصوصاً والدعاء عمومًا، مما يحيل على القصدية في الطلب، وهو دعاء يمثل فعلاً كلامياً، (فعل متضمن في القول) عند أوستين وسيرل، معناه يتحول من الأمر إلى الدعاء.

أما الآية الثانية: "وَأَشْتَعَلْ أَلُتُّ شَيْبًا" فقد جرت فيها الاستعارة المكنية حيث شبه الله عز وجل شيب الرأس بالنار المشتعلة، فذكر المشبه (شيب الرأس)، وحذف المشبه به (النار)، لكنه أبقى على أحد لوازمها (اشتعل)، وهي قرينة لفظية "وهكذا تركت الحقيقة في: شاب رأسي إلى الاستعارة في: اشتعل شيب رأسي لما سيأتي أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة."^٢ وقد جاءت الجملة مركبة من ثلاث كلمات، حافظت كل منها على موقع ورودها في الكلام: الفعل (اشتعل)، الرأس (فاعل)، شيباً (تمييز)، ولو اختلف الترتيب بالتقديم أو التأخير في الكلام ما أثر في الاستعارة، بناء على تفسير صاحب الإيضاح: "اشتعل شيب رأسي"، رغم أن التمييز أخذ موقع الفاعل، والفاعل أخذ موقع التمييز، "وبهذا يتضح أن جمال الاستعارة وحسن وقعها يعود إلى التركيب النحوي، ويرجع إلى النظم والتأليف في العبارة، فإذا كان التركيب محكماً، والتأليف متسقاً يقوم على قواعد اللغة، ووضع كل كلمة في مكانها المناسب، كانت الاستعارة في أعلى المراتب، وأسمى الدرجات."^٣ وهذا ما يجعل الاستعارة في هذا المثال تتبوأ هذه المنزلة. وقد وردت الاستعارة في سياق دعاء زكريا عليه السلام ربه أن يهبه الذرية الطيبة، متضرعاً إليه، مدعماً طلبه بضعفه وكبر سنه، فإن الغاية منها وصف حاله بطريقة تصويرية تؤثر في نفس المخاطب، وتيسر فهمه للعبارة القرآنية بطريقة حسية ملموسة، ولهذا سماها السكاكي في مفتاح العلوم: "استعارة محسوس لمحسوس".^٤

ب- في الاستعارة الأصلية والتبعية:

تكون الاستعارة أصلية إذا كان الاسم الذي جرت فيه اسم جنس جامد سواء أكان اسم ذات أم اسم معنى، وإذا كان اللفظ المستعار اسماً مشتقاً أو فعلاً أو حرفاً فإن الاستعارة تكون تبعية نحو:

١ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ١: ٣٩٣.

٢ - جلال الدين القزويني، (د.ت)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، (د. ط)، بيروت، دار الجيل، ٣: ١٩٠.

٣ - عبد الفتاح لاشين، (د. ت)، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، (د. ط)، المملكة العربية السعودية، دار المريخ للنشر والرياض، ص: ٢٠٢.

٤ - أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ١: ٣٨٨.

قوله تعالى: "الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"^١

وقوله تعالى: "فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ"^٢

في الآية الكريمة الأولى استعارة تصريحية أصلية؛ حيث شبه الله عز وجل الكفر والضلال بالظلمات، والإيمان والهداية بالنور، فحذف اللفظ الدال على المشبه (الكفر والضلال)، وصرح باللفظ الدال على المشبه به (الظلمات والنور)، وبما أن الاستعارة قد جرت في لفظتين جامدتين غير مشتقتين كانت أصلية، وقد تجسدت الاستعارة في تركيب نحوي يتعلّق أوله بآخره، وآخره بأوله، فلو فصلنا الكتاب مثلاً عن الظلمات والنور، ما عليم المتلقي ما يخرج الناس من الظلمات إلى النور، لأن الجار والمجرور متعلّق بالكتاب معي، وبالفعل "تخرج" لفظاً، وهذا الانتقال من معنى إلى آخر لا يتم إلا بتعاقد كل المكونات اللغوية حيث إن المبنى أصل في المعنى، وبه تُقاس قوة الاستعارة من ضعفها، فإن كان محكم التركيب كانت الاستعارة أشد قوة، وهذا التعلّق بين مفردات التركيب هو ما يفضي إلى المعنى الثانوي الذي كانت من أجله الاستعارة، فالجار والمجرور مثلاً مرتبطان بالفعل "تخرج" نحويًا.

وإذا بحثنا في المعنى التداولي؛ فالآية الكريمة تبين عظمة القرآن الكريم وقدرته على الفصل بين الحق والباطل للناس، بوساطة الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، والانتقال بهم من الكفر والضلال إلى الهدى والإيمان، ناهيك عن إنقاذ البشرية من واقع مظلم إلى واقع منير، يؤثر فيهم بفصاحة لسانه، وبلاغة كلماته، وهو ما يسهم في إيصال المعاني بقوة، مما يدفعهم إلى الاقتناع بدعوته.

أما الآية الكريمة الثانية فقد اختلف البلاغيون في تصنيفها؛ حيث إن منهم من أدرجها ضمن الاستعارة المجردة، ومنهم من قال بالاستعارة المرشحة على اعتبار ذكر ما يلائم المشبه أو المشبه به، بل إن إسناد الألفاظ إلى بعضها كان في غاية الدقة والإحكام؛ فانظر إلى الفعل (أذاق) والمفعول به (لباس)، وانظر إلى المتضايين (لباس الجوع)، (لباس الخوف)، ولك أن تتساءل: أيمن أن يكون للباس طعم حتى يذاق؟ وهل الجوع والخوف كساء حتى يلبس؟ "فالذوق واللباس حتى يدل على مباشرة الذوق وإحاطته وشموله، فأفاد الإخبار عن إذاقته أنه واقع مباشر غير منتظر، فإن الخوف قد يتوقع ولا يباشر، وأفاد الإخبار عن لباسه أنه محيط شامل كاللباس للبدن"^٣، وهنا يستوقف البيان المعجز حكماء البلاغة، فيبحثون لهم عن مخرج قصد الدنو من المعنى المراد بتأويلاتهم الافتراضية: فالإذاقة يناسبها الطعم للجوع، واللباس يلائمه الكساء، إلا أن البلاغة الإلهية المعجزة تفوق قدرات البشر البلاغية، إذ وظف لفظ الإذاقة للتعبير على قوة الألم في الأبدان، على نحو ما يكون مذاق الطعام في فم من يتذوقه، واعتمد اللباس ليوضح أن الجوع والخوف شمل وقعهما جميع البدن عموم الملابس؛ فربط بذلك بين قوة الإحساس بالألم وعمومه. والقرآن الكريم وحده القادر على التفرد بهذا المعنى، لنفترض خارج كلام

^١ - سورة إبراهيم، الآية: ١.

^٢ - سورة التحل، الآية ١١٢.

^٣ - الزبيدي، (د.ت)، تاج العروس من جواهر القاموس، (د. ط)، مجموعة من المحققين، دار الهداية ٢٥: ٣٢٧.

الله عز وجل أنه قيل (فأذاقها الله طعم الجوع والخوف) أو (فكساها الله لباس الجوع والخوف)، لن تكون الاستعارة بهذا القدر من الدقة في التصوير والإحكام، فأعظم به كلام، وأنعم بما بلاغة.

وبما أن نوع الاستعارة التي نبحت فيها هي الاستعارة التبعية، فقد شبه الله عز وجل شدة ما يحيط بالناس من جوع وخوف باللباس الذي يحيط بالجسد ويعطيه بكامله؛ فقد جرت الاستعارة بهذا المعنى في ألفاظ مشتقة (أذاق - لباس - الجوع - الخوف)، إلا أن السكاكي يذهب بما أبعد من ذلك فيحملها على التحقيق: "الظاهر من اللباس عند أصحابنا الحمل على التخيل وإن كان يحتمل عندي أن يحمل على التحقيق، وهو أن يستعار لما يلبسه الإنسان عند جوعه من انتقاع اللون وراثثة الهيئة."^١

وقد تركبت الجملة نحويًا من فعل ماضٍ متعدّد ومفعول به أول (أذاقها)، واسم الجلالة فاعل (الله)، ثم مفعول به ثاني (لباس)، إضافة إلى مضاف إليه (الجوع)، واو العطف واسم معطوف (الخوف)، وهذا التركيب الفعلي احترمت فيه الرتبة، وموقع الألفاظ من الكلام (فعل + فاعل + مفعول به ...) رغم تقدّم المفعول به الأول إلا أنه لم يؤثر على المعنى العام للكلام، وهذا الترتيب بدوره أسهم في جعل الاستعارة مثالية في هذا المقام.

والجملة لا يؤخذ بظاهر معناها وإنما تحمل على معانٍ أخرى وفق سياق الكلام ذهب المفسرون في ذلك إلى المقصود بالقرية مكة المشرفة، كانت قرية مطمئنة، يسر الله لها نعمه من كل حذب وصوب، إلا أنهم جحدوا النعم وكفروا بها، فأذاقهم الله عز وجل الجوع حتى أكلوا العظام المحرقة والجيف والكلاب الميتة، وأصابهم الخوف من رسول الله عليه الصلاة والسلام وجيوشه: "(وضرب الله مثلا) ويبدل منه (قرية) هي مكة والمراد أهلها (كانت آمنة) من الغارات لا تحتاج (مطمئنة) لا يحتاج إلى الانتقال عنها لضيق أو خوف (يأتيها رزقها رغدا) واسعا (من كل مكان فكفرت بأنعم الله)، بتكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، (فأذاقها الله لباس الجوع)، فقحطوا سبع سنين (والخوف) بسرايا النبي صلى الله عليه وسلم (بما كانوا يصنعون)."^٢ وهذا خطاب تحذيري غير مباشر للناس كافةً تضمنه الكلام، يروم تحذير السامع أن النعم لا تدوم مع الجحود والكفر بما وعدم شكرها، وذلك قصد الاتعاظ وأخذ العبرة من القرية التي كانت آمنة، فغير الله حالها من الأمن إلى الخوف والجوع عقوبة لها.

ج- في الاستعارة المرشحة والمجردة والمطلقة:

تكون الاستعارة مرشحة إذا ذكر معها ما يلائم المشبه به، ومجردة إذا ذكر معها ما يلائم المشبه، ومطلقة إذا خلت مما يلائم المشبه (المستعار له)، والمشبه به (المستعار منه)، أو ذكر معها ما يلائم كلا الطرفين.

١ - أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، ١: ٣٧٨.

٢ - جلال الدين محمد بن أحمد؛ وجمال الدين السيوطي، (د.ت)، تفسير الجلالين، دار الحديث، الطبعة الأولى، القاهرة، ص: ٣٦٢.

قال تعالى: "أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ"^١

وقال تعالى: "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا"^٢

وقال عز وجل: "يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ"^٣

في الآية الكريمة الأولى استعارة مرشحة؛ شبه اختيارهم الضلالة على الهدى بالشراء، فقد استعير الاشتراء للاختيار، ثم دَعَمَهُ بما يلائم المستعار منه، بقوله (ربحت تجارتهم)، والجامع بينهما هو استبدال شيء بغيره في كليهما، يعني اختاروا الكفر على الإيمان.

ومن خلال التمعن في تركيب الجملة، يتأكد لنا أن النحو يسهم بشكل كبير في توطيد الروابط بين الكلمات بطرق تدعم المعنى المجازي؛ فلنأخذ مثلاً الفعل "اشتروا" الذي يعبر عن عملية تبادل شيء بشيء آخر، مما يضفي منحى مجازياً على الكلمات الدينية، فتصير الهدى والضلالة بمثابة سلع تُباع وتشتري، وقد ارتبط هذا الفعل "اشتروا" بالضلالة قبل الهدى مما يعزز البعد التصوري للاستعارة، وحتى لا يَظُنَّ المنافق أنه في فلاح من أمره، فقد تويع الكلام بنتيجة منطقية دعمت التماسك بين الجمل، فكانت جواباً بصيغة النفي (ما ربحت)، حتى يؤكد لهم خسارتهم في هذه التجارة، وهو حكم نهائي على مصيرهم. "فالتصوير القرآني -والاستعارة منه- لون من ألوان النظم، ولا يتصور أن يتم رسم مشهد من مشاهد القرآن الكريم المتنوعة في لطفها وجمالها دون إطار منظوم أو تأليف محكم."^٤

وقد أسهم البعد التداولي في الاستعارة في منع حدوث الالتباس في المفاهيم لدى المتلقي، فرغم أن الآية وردت في سياق توجيه الخطاب إلى الكفار والمنافقين الذي حادوا عن طريق الحق، إلا أن هذا المعنى يمتد ويشمل كل من سار على دربهم، ونهج طريقهم، كما حملت الآية أفعالا مباشرة وغير مباشرة تضمنها الكلام؛ فالفعل "اشتروا" يتضمن دلالة لوم وتوبيخ ضمنية، وليس مجرد إخبار فقط عن حالهم، وقد ذكرنا سابقاً أن الخطاب صَوَّر الهدى والضلالة بمثابة بضاعة يمكن المتاجرة بها، خصوصاً وأنها ارتبطت ببيئة تجارية محضنة في عصر نزول القرآن الكريم، لكنها ارتبطت في هذا الموضع بالخسارة، وهي سخرية مستلزمة من سياق الكلام.

وفي قوله تعالى "هو الذي جعل لكم الأرض ذُلُولًا"^٥ استعارة مرشحة شبه الله عز وجل الأرض في لينها وانقيادها وسهولة الاستقرار عليها، وتكرار المشي فيها، وثباتها بالجبال الراسية، وقدرة الناس على الحرث والزراعة فيها، وتمكنهم من شق العيون وحفر الآبار بالدابة السهلة المنقادة المطاوعة، كقوله تعالى في سورة البقرة "إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي

١ - سورة البقرة، الآية: ١٦.

٢ - سورة الملك، الآية: ١٥.

٣ - سورة البقرة الآية: ٢٧.

٤ - عبد الفتاح لاشين، التراكيب التحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، ص: ٢٠٢.

٥ - سورة الملك، الآية: ١٥.

الحَرْث^١، فقد ورد لفظ "ذلولاً" باعتباره أولاً: مستلزماً من مستلزمات المستعار منه (المشبه به) المحذوف في الكلام (النَّاقَة)، وثانياً: قرينة للاستعارة المكنية، وبما أن الاستعارة اكتملت بذكر عناصرها الرئيسية، فهي استعارة مكنية مطلقة، حيث يمكن اعتبار (ذلول) لازماً دل على ما حُذف، وقد فسرها القرطبي بقوله "أي سهلة تستقرون عليها. والذلول المنقاد الذي يدل لك والمصدر الذل وهو اللين والانقياد. أي لم يجعل الأرض بحيث يتمتع المشي فيها بالحزونة والغلظة."^٢

وقد تجسدت الاستعارة في كوكبة من المتلازمات التركيبية؛ فالفعل "جعل" ورد متعدياً لمفعولين (الأرض وذلولاً)، وهو من أفعال التحويل والتصيير، مما يوحي إلى عملية تصيير الأرض إلى حالة معينة، وهي كونها سهلة منقاداً. أما المفعول الثاني أو الحال (ذلولاً) فهو اسم مشتق يدل على صفة ثابتة، مما يدعم تمثيل الأرض كائناتاً حياً يمكن تذليله، كما يسجل تقديم الأرض عن الذلول، مما يعني التركيز على ما وقع عليه الفعل، وكل هذا يمهد لفهم الاستعارة على أنها تغيير في طبيعة الأرض وليس مجرد وصف لها.

ومن هذا المنطلق يأتي التحليل التداولي ليكشف القصد والهدف الذي من أجله وردت الآية وهو قدرة الله وملكوته في الأرض، وتذكير البشر في الأرض بنعمه التي لا تحصى، وتشجيعهم على السعي في الأرض، واستثمارها في الرعي والزراعة والتجارة، متدرجة في أفعال الكلام الموظفة بين الإخبار بنعمة الله، ثم الأمر في آخر الآية للحث على السعي وأكل رزق الله (امشوا في مناكبها، كلوا من رزقه)، وانتهاء بالعودة إلى الإخبار من خلال التذكير بحتمية البعث (وإليه النشور).

وفي المثال الأخير استعارة مكنية مطلقة لم يذكر معها ما يلائم أحد طرفي الاستعارة (المستعار له والمستعار منه)، حيث شبه الله تعالى العهد بالحبل، إلا أنه صرح بالعهد، ثم حذف الحبل وذكر ما دل عليه في الكلام وهو (ينقضون) بمعنى يقطعون. وهذا يدل على أن العهد يشبه الحبل المتين الذي يفترض أن يحافظ عليه، إلا أنهم ينقضونه أي يقطعونه. فسرها البغوي بقوله: "فقال (الذين ينقضون) يخالفون ويتركون وأصل النقض الكسر (عهد الله) أمر الله الذي عهد إليهم يوم الميثاق^٣". ويمكن بيان التعاون بين النحو والتداولية فيما يلي: اسم الموصول (الذين) في محل رفع على النعت أو البدل لما قبله، الفعل المضارع المرفوع بثبوت النون، والفاعل المجسد في الضمير (الواو)، في (ينقضون)، يدل على التكرار والاستمرار، وقد استخدم بدلاً من الماضي، ليعطي معنى استمرارية النقض، وكأن نقضهم يكون بشكل دائم ومستمر، وهو ما استوجب الإدانة، أما المفعول به (عهد) فقد أضيف إلى اسم الجلالة الذي يعكس أهمية العهد وعظمته، وأنه عهد مقدس، وليس مجرد عهد بين البشر، والكلام في هذا الموضع يعظم من ذنبهم.

١ - سورة البقرة الآية: ٧١.

٢ - القرطبي، ١٩٦٤، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية، القاهرة، دار الكتب المصرية ١٨: ٢١٥.

٣ - البغوي، ١٩٩٧م، معالم التنزيل في تفسير القرآن، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الطبعة: الرابعة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١: ٧٧.

إن التركيب النحوي للآيات القرآنية لا يعمل بمعزل عن المعنى التداولي، بل يدعم بلاغة الاستعارة، ويجعل المعنى أكثر تأثيراً على المتلقي، وكلما كان الكلام محكم التركيب، متين الروابط، كلما كانت الاستعارة مثالية، وأقوى في الكلام، وأدت بعداً تصويرياً وجمالياً يأخذ المتلقي في متاهات المعاني.

الخاتمة:

تبين لنا في نهاية هذا التحليل أن التكامل بين التركيب النحوي والفهم التداولي له دور كبير في فهم النصوص القرآنية فهما عميقاً، لا ينحصر عند حدود المعنى الضيق للكلام، وإنما ينغمس فيما وراء المعاني السطحية ليكشف لنا عن مكنون الألفاظ ومستورها، وقد اتضح ذلك بالملاموس من خلال الوقوف عند نماذج من بعض الآيات القرآنية التي برزت قوة اللغة في التوجيه والتأثير والإقناع، كما توصلنا إلى أن التحليل النحوي يكشف عن البنية اللغوية للجمل، نحو دلالة الأفعال بصيغها الثلاث (ماض، مضارع، أمر)، وتركيب المفاعيل، والإسناد، والظروف الزمنية، وأشبه الجمل ... بينما يسعى التحليل التداولي لتوضيح كيفية توظيف هذه التراكيب في تحقيق المقصدية، ومن ثم التأثير على المتلقي وإقناعه. وهكذا لم تقتصر الأمثلة على الجمال البلاغي فقط، بل حملت أبعاداً تداولية عززت من أثر الآية في نفس المخاطب، سواء بإظهار الضعف، أو التشجيع على السعي في الأرض، أو التحذير من نقض العهود... كما أن الاختيارات النحوية لم تكن عشوائية بل خدمت الرسالة التداولية للآيات، وجعلت النص القرآني نموذجاً معجزاً بألفاظه ومعانيه، ومتجدداً في معناه ودلالاته، متجاوزاً حدود الزمان والمكان.

وقد توصل البحث في نهاية الدراسة إلى النتائج التالية:

- كان الغرض الرئيس وراء نشأة النحو تقويم اللسان العربي، وحفظ القرآن الكريم من التحريف واللحن، ومنه أفادت باقي العلوم من بينها البلاغة العربية، التي قامت على أسسه وأصوله، وهذا التداخل بين النحو والبلاغة أفضى إلى تأسيس نظرية النظم مع الجرجاني.
- اتضح بالملاموس أن قوة ألفاظ القرآن العظيم تتجسد في المعاني التي تؤديها داخل سياق معين، كما أنها تكتمل بناء على الدور الذي تؤديه المعاني النحوية داخل تركيب معين.
- تبين من خلال تحليل بعض الاستعارات تحليلاً بلاغياً ونحويًا، أن النحو والبلاغة علمان رئيسان لفهم مظاهر الإعجاز القرآني، وعلى هذا الأساس قامت نظرية النظم مع الشيخ عبد القاهر الجرجاني رحمه الله.
- بما أن الاستعارة تقوم على طرفين رئيسين، تجمع بينهما علاقة مشابهة، وإن حذف أحدهما في الكلام، فإن هذه العلاقة هي أيضاً علاقة إسنادية بين لفظين لمعنيين مختلفين يجسدها علم النحو، حيث لا يمكننا الحكم على وجود الاستعارة في الكلام إلا بوجود طرف أول، وطرف ثان محذوف دلّ في الكلام على ما يعود إليه.
- الاستعارة استعمال لفظ في غير ما وضعت له في الأصل لعلاقة المشابهة القائمة بين المعنيين، الأصلي والمجازي. وهي تشبيه حذف أحد طرفيه بشرط بقاء قرينة دالة على المحذوف تمنع من إرادة المعنى الحقيقي، مما يولّد معنى جديداً في الكلام، وهو ما يسميه التداوليون بالمعنى المستلزم من السياق، وهنا تتقاطع البلاغة مع التداولية.

- يؤدي التحو أدواراً مهمة في الكلام، منها أن به يعرف موقع المتكلم والمخاطب، والموصوفين والمتضايفين، والمفاعيل وغيرها، وهي تعمل بمراعاة المعنى التداولي، الذي يحقق بلاغة الاستعارة، ويجعلها مثالية، لها تأثير قوي على المتلقي.
- يشكل السياق المحطة الرئيسة في فهم الكلام بغض النظر عن نوع المتكلم ومقصده، يُقابل هذا المتكلم في التداولية مفهوم العامل في التحو؛ لأن الإعراب يحدث في الجملة بناء على المعاني التي يريد هذا المتكلم.
- توصلنا من خلال الموازنة بين علم التحو والتداولية إلى أن الهدف الأساس التي قامت من أجله الدراسات التحوية هو أمن اللبس وإظهار المعنى وتقويم لسان المتكلمين، والغاية نفسها تحققت مع التداوليات الحديثة من خلال التركيز على أطراف الخطاب في العملية التواصلية، فضلاً عن الاهتمام بالمعنى والسياق والكلام المستلزم منه.

توصيات البحث:

- الاهتمام بالخطاب القرآني، من خلال عقد ندوات ومؤتمرات دولية تخصص محاورها للتكامل المعرفي بين العلوم في القرآن الكريم.
- أوصي المناابر والمراكز البحثية التابعة للجامعات، أو المدارس العليا، بإعداد كتب ومؤلفات جماعية حول الاستعارة، باعتبارها ضرباً من ضروب البلاغة، وبيان القواسم المشتركة بينها وبين باقي العلوم.
- بيان الأدوار التي تقوم بها الاستعارة في تحقيق المقاصد التداولية.
- إبراز أهمية التفاعل بين علوم مختلفة: النحو، البلاغة، التداولية قصد التوصل إلى تفسير دقيق للخطاب القرآني.
- أدعو لدراسة التأثير النفسي والبلاغي للاستعارة على المخاطب، مع تحليل السياق التداولي الذي وردت فيه.
- إعداد دراسات تركز على دور النحو في توجيه المعنى البلاغي، وتفسير النصوص القرآنية.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

أ. الكتب:

١. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، (د.ت)، الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، (د.ط)، مصر، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع.
٢. ابن جني، أبو الفتح عثمان الموصلي، (د.ت)، الخصائص، الطبعة الرابعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٣. ابن مالك، (د.ت)، ألفية ابن مالك، باب الكلام وما يتألف منه، (د.ط)، دار التعاون.
٤. أبو الحسن الرماني المعتزلي، ١٩٨٧م، "النكت في إعجاز القرآن"، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، (د.ط)، مصر، دار المعارف.
٥. أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، ١٩٩٢م، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمد محمود شاكر، الطبعة الثالثة، القاهرة، مطبعة المدني.

٦. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، ١٩٦٤، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الطبعة: الثانية، القاهرة، دار الكتب المصرية.
٧. أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، ١٩٩٧م، معالم التنزيل في تفسير القرآن، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الطبعة: الرابعة، دار طيبة للنشر والتوزيع.
٨. أبو هلال العسكري، الصناعتين، ١٤١٩هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، (د.ط)، بيروت، المكتبة العنصرية.
٩. إمبرتو إيكو (٢٠٠٥)، السيميائيات وفلسفة اللغة، ترجمة أحمد الصمعي، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
١٠. أمبرتو إيكو (٢٠٠٠)، التأويل بين السيميائية والتفكيكية، ترجمة سعيد بنكراد، ط١، الرباط، المغرب، المركز الثقافي العربي.
١١. جلال الدين القزويني، (د.ت)، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت، دار الجيل.
١٢. جلال الدين محمد بن أحمد؛ وجمال الدين السيوطي، (د.ت)، تفسير الجلالين، دار الحديث، الطبعة الأولى، القاهرة.
١٣. طه عبد الرحمان، ١٩٩٨م، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط١، بيروت، المركز الثقافي العربي.
١٤. عبد الفتاح لاشين، (د. ت)، التراكيب التَّحْوِيَّة من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، (د. ط)، المملكة العربية السعودية، دار المريخ للنشر والرياض.
١٥. علي محمود حجي الصراف، ٢٠٠٠، في البراغميات الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، (د.ط)، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع.
١٦. عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، سيبويه، ١٩٨٨م، الكتاب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثالثة، القاهرة، مكتبة الخانجي.
١٧. محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض الزبيدي، (د.ت)، تاج العروس من جواهر القاموس، (د. ط)، مجموعة من المحققين، دار الهداية.
١٨. يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب السكاكي، ١٩٨٧م، مفتاح العلوم، تعليق نعيم زرزور، (د.ط)، بيروت، دار الكتب العلمية.

ب. الدوريات:

١. بوطهرة نعمان، دجنبر ٢٠٢٢، دلالات الاستعارة القرآنية بين النَّحو والبلاغة، مقارنة لسانية في التركيب اللغوي، *المجلة الجزائرية للعلوم الإنسانية والاجتماعية*، المجلد ٦، العدد ٢.
٢. راضية عزيزي، يونيو ٢٠٢١، كمال بخوش، الاستعارة بين البلاغة العربية واللسانيات المعرفية، *مجلة المدونة*، المجلد ٨، العدد ٢.
٣. سليم قزعو، يوليو ٢٠٢٢، الأصول التداولية في النَّحو العربي، *مجلة الآداب واللغات*، المجلد ٨، العدد ٢.
٤. عيد بلع، ٢٠٠٥م، الرؤية التداولية للاستعارة، *مجلة علامات*، العدد ٢٣.